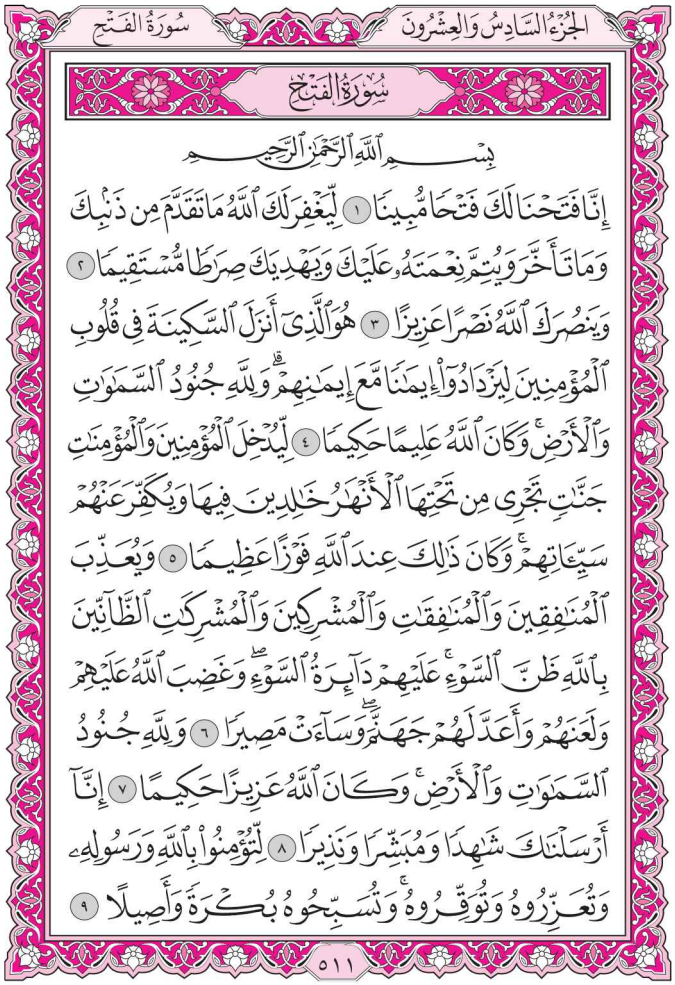

سُورَةُ الفَتۡحِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢
وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ
سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥ وَيُعَذِّبَ
ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ
بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ
وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧ إِنَّآ
أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩

سورة الفتح

سورة الفتح مدنيّة وآياتها تسع وعشرون آية.

هذه السورة تتحدث عن فتح أعظم من فتح بلد أو فتح عاصمة، وذلك أن رسول الله ﷺ وصحابته ذهبوا إلىٰ مكة لأخذ عمرة؛ فلما وصلوا الحديبية منعهم أهل مكة، ثم ذهب عثمان بن عفان بأمر من رسول الله ﷺ ليشرح لهم هدف رسول الله، وأنه لم يأت إلا لأخذ عمرة وسيعود؛ فتأخر عثمان عن العودة إلىٰ رسول الله ﷺ وشاع الخبر أنه قتل؛ فأحزن الخبر الجميع، ثم قرروا الهجوم فبايعوا الرسول ﷺ علىٰ القتال حتىٰ الموت.

ثم جاء عثمان ومعه وفد من قريش يطلبون من الرسول ﷺ أن يرجع، وبعد مفاوضات ومناقشات اتفقوا علىٰ الصلح علىٰ أن يعود الرسول ﷺ وأصحابه، ويأخذوا العمرة في السنة القادمة.

ولما عاد الرسول ﷺ نزلت هذه السورة؛ فقال المسلمون أي فتح هذا؟ فأخبرهم ﷺ أنه فتح حقيقي؛ لأن الله قال ذلك؛ فلما رجعوا إلىٰ المدينة انتشر الخبر فجاءت القبائل من كل أجزاء الجزيرة يعلنون إسلامهم؛ فعلم الصحابة أنه فتح كبير عظيم؛ لأن الذين دخلوا في الإسلام في ثلاث سنوات أكثر من الذين دخلوا الإسلام خلال السنوات التي قبل المعاهدة بثلاثة أضعاف بل أكثر؛ لأنه بعدها يسر الله فتح خيبر، ثم سائر مدن الجزيرة العربية بما في ذلك مكة والطائف.

[١] بدأت السورة بتبشير النبي ﷺ أن الله جل وعلا فتح له فتحًا بينًا ظاهرًا فارقًا بين الحق والباطل، وهو الصلح الذي تم في الحديبية وما حصل بعده من دخول الناس في دين الله أفواجًا.

[٢] واعلم يانبي الله أن هذا الجهد والكفاح والصبر وما تحملته في هذا الفتح يسره الله لك؛ ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك بإظهار دينك، ويرشدك طريقًا مستقيمًا لا عوج فيه ولا انحراف.

[٣] وكذلك مقابل هذا الجهد وهذا الصبر يانبي الله لينصرك جل في علاه علىٰ أعدائك نصرًا قويًا تامًّا منيعًا لا يتبعه ذلٌّ، ولا يدفعه دافع.

[٤] واعلموا أن الله جلَّ وعلا بمنِّه وكرمِهِ هو الذي أنزل السكينة والطمأنينة والرضا علىٰ قلوب عباده المؤمنين لئلَّا تضطرب نفوسهم، وتنزعج من جراء الصلح، ليزيدهم الله بتلك السكينة والطمأنينة إيمانًا يُضاف إلىٰ إيمانهم السابق، ثم بين سبحانه أن له جنود السماوات والأرض، وكان الله عليمًا بخلقه، لا يخفىٰ عليه من أمورهم شيء، حكيمًا في تدبيره لأوليائه.

[٥] ثم بين جل وعلا أنه أنزل السكينة علىٰ قلوب المؤمنين وأنه جعل جنود السماوات والأرض تحت سيطرته وملكه؛ ليدخل سبحانه عباده المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها، ماكثين فيها لا يخرجون منها ابدًا، ولا يتحولون ولا يزولون عنها، وليكفر عنهم سيئاتهم، ويمحو عنهم ذنوبهم وخطيئاتهم، وكان ذلك – أي: دخول الجنات، وتكفير السيئات – عند الله فوزًا عظيمًا.

[٦] ثم بين سبحانه أنه سوف يُعذِّبُ المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين أرادوا خذلان المؤمنين وهزيمَتَهُم، والذين ظنوا بالله ظن السوء أنه لا ينصر دينَه، ولا يُعْلي كلمته، وأنه يديلُ أهل الباطل علىٰ أهل الحق إدالةً دائمة، وقالوا: غر هؤلاء دينهم؛ فهؤلاء يرجعُ عليهم ظنهم؛ فينالهم الذل والهوان والخزي، وغضب الله عليهم، وطردهم وأبعدهم من رحمته، وهيَّأ لهم جهنم ليسكنوها ويقيموا فيها، وساءت لهم مسكنًا، وساءت إقامتهم فيها، وساءت لهم منزلًا يصيرون إليه.

[٧] واعلموا أن لله جنود السماوات والأرض، وما يعلم جنود ربك إلا هو؛ فينصر عباده المؤمنين بما شاء من جُندِه، وكان الله عزيزًا قويًّا غالبًا قاهرًا لكل شيء، حكيمًا في خلقه وتدبيره لأوليائه.

[٨] واعلم يانبي الله أن الله جل وعلا قد أرسلك شاهدًا علىٰ أمتك فتشهد بإيمان من آمن، وبكفر من عاند وكفر وحارب دعوتك، ومبشرًا للطائعين الصالحين بالجنة والثواب الكبير من الله لهم، ونذيرًا لأهل المعصية بالنار والعذاب الأليم.

[٩] وكما أرسلك الله يانبي الله شاهدًا علىٰ أمتك ومبشرًا ونذيرًا لهم؛ فكذلك أرسلك سبحانه لدعوة الناس إلىٰ التوحيد وتعليمهم أمور دينهم؛ ليؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، وينصروا دين الله، ويعظموا رسوله ﷺ ويجلوه ويقوموا بحقوقه؛ حيث اتصف بالكمال، وينزهوا الله عن الشريك وعن كل نقص أول النهار وآخره، ويستمروا في تسبيح الله وتنزيهه عما لا يليق بعظمته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ
أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ
بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ
لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا
فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ
فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن
يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى
قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ
أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

[١٠] واعلم يانبي الله أن الذين يبايعونك علىٰ الموت في سبيل الله مقابل ثواب الله بالجنة المعدة للشهداء في سبيله؛ إنما يبايعون ويعاهدون الله طاعة له جل في علاه وامتثالًا لأمره، والمقصود بهذه البيعة هي بيعة الرضوان التي تمت في الحديبية تحت الشجرة، وسميت هذه المعاهدة مبايعة لأنها تمت بصفقة اليد، ثم بين سبحانه بأن من ينقض هذه البيعة بعد توثيقها فإنما عاقبة نقضه تعود عليه، أما من ثبت علىٰ الوفاء بما عاهد الله عليه وصبر عند لقاء العدو؛ فسوف يعطيه سبحانه من فضله أجرًا عظيمًا وهو جنة عرضها كعرض السماوات والأرض. وفي هذه الآية إثبات صفة اليد لله عز وجل بما يليق به سبحانه من غير تشبيه ولا تكييف.

[١١] يخبر جل وعلا نبيه ﷺ بما سوف يعتذر به الذين تخلفوا من الأعراب عن الخروج معك إلىٰ مكة من الأعذار الكاذبة؛ حيث إنهم سيقولون لك: لم نتخلف عنك باختيارنا إنما شغلتنا أموالنا وأهلونا؛ ثم طلبوا منه ﷺ أن يستغفر لهم الله علىٰ هذا الذنب، ثم بين سبحانه بأنهم يقولون ذلك تقية ونفاقًا، ولا حقيقة له في قلوبهم، فقل لهم يانبي الله: فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم شرًّا أو أراد بكم خيرًا؟، واعلموا أن الله عليم بسرائركم وضمائركم، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال خلقه.

والأعراب هم سكان البادية الرُّحَّل الذين يتبعون أماكن العشب والمطر، أما العرب فهم سكان المدن المقيمون، وقد كان حول المدينة أعراب من غفار ومزينه وأسلم وآخرين، فلما خرج رسول الله ﷺ إلىٰ العمرة طلب من الناس الذهاب معه تخوفًا من قريش أن يحاربوه، وهؤلاء الأعراب ظنُّوا ظنًّا سيئًا بأن قريشًا سوف يقضون علىٰ محمد ﷺ وأصحابه، ولذلك تعذروا بهذه الأعذار الكاذبة التي فضحها الله تعالىٰ.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أن الأمر ليس كما زعمتم وبينتم في اعتذاركم من انشغالكم بالأموال والأولاد أيها المنافقون، ولكن حقيقة الأمر: أنكم ظننتم ظنًّا سيئًا؛ حيث ظننتم أن العدوّ سوف يستأصل رسولَ الله ومن معه من المؤمنين، فلا يرجع إليكم منهم أحدٌ أبدًا، وحسَّن الشيطان ذلك الظن وزيَّنه في قلوبكم حتىٰ استحكم فيها، وكنتم قومًا هالكين فاسدين لا خير فيكم.

[١٣] واعلموا أيها الناس أن من لم يؤمن بالله واليوم والآخر، ويصدق رسولَه ﷺ فيما جاء به؛ فهو كافرٌ مستحقٌّ لعذاب الله في نار شديدة الاستعار واللهب.

[١٤] واعلموا أيضًا أن الله هو وحده المتفرِّد بملك السماوات والأرض، وما فيهن وما بينهما، يحكم فيهما بما يريد، فيغفر لمن وحَّده وآمن به - بكرمه وفضله -، ويعذِّب من كفر به وعصاه - بحكمته وعدْلِه -، وهو سبحانه كثير المغفرة لعباده المذنبين التائبين، كثير الرحمة بعباده المستغفرين المنيبين.

[١٥] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ بما سوف يقوله أولئك الذين تخلفوا من الأعراب عن الخروج معك؛ بعد أن خاب ظنهم فرجعتم سالمين من مكة؛ حيث إنهم سيقولون لك: إذا انطلقت يامحمد أنت وأصحابك إلىٰ غنائم خيبر التي وعدكم الله بها دعونا نذهب معكم لنشارككم في جمعها، وقصدهم بذلك أن يغيروا وعد الله لكم أن غنائم خيبر هي لمن شهد الحديبية؛ فقل لهم يانبي الله: لن تخرجوا معنا لأن الله جل في علاه أخبرنا بأن غنائم خيبر هي لمن شهد الحديبية، وهذا عقاب لكم علىٰ معصيتكم برفضكم الخروج معنا لمكة، وعلىٰ سوء ظنكم بنا، وعندئذٍ سوف يردون عليكم قائلين: إن الله لم يأمركم بمنعنا من الخروج معكم؛ بل أنتم الذين تمنعوننا حسدًا منكم أن نشارككم في هذه الغنائم، واعلم يانبي الله أن الأمر ليس كما زعموا؛ بل إنهم كانوا قومًا دأبهم الجهل والحمق، ولا يفقهون من أمور الدين إلا الشيء اليسير.

وما ذكر في هذه الآية لا ينطبق علىٰ جميع الأعراب؛ فقد استثنىٰ الله منهم خلقًا؛ فبعد أن قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[التوبة:٩٧]، قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ...﴾ الآية، [التوبة:٩٩]، فالله جل وعلا لا يظلم مثقال ذرة، ويكرم أهل الفضل، ويشيد بمواقفهم.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ
عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي
قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

[١٦] وقل يانبي الله للذين تخلفوا عن الجهاد والقتال من هؤلاء الأعراب: ستُدعوْن – فيما بعد – إلىٰ قتال قوم أصحاب قوة وشدة في الحرب، فتقاتلونهم، فإما أن يسلموا، وإما أن يغلبوا أو يؤسروا ويُبادوا، فإن تطيعوا وتجيبوا من دعاكم لهذا القتال يؤتكم الله أجرًا حسنًا في الدنيا بالمغنم وفي الآخرة بدخول الجنة والنعيم المقيم، وإن تُعرضوا وتتولوا كما توليتم من قبل في غزوة الحديبية؛ فسيعذبكم الله عذابًا أليمًا في الدنيا بالخزي والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب النار، وبئس القرار.

[١٧] ثم ذكر جل وعلا أهل الأعذار، وبين أنه ليس عليهم إثم في التخلف عن الجهاد، وأما الإيمان والأعمال الصالحة التي يقدرون عليها فهم مثل غيرهم، وذكر سبحانه من أهل الأعذار: الأعمىٰ والأعرج والمريض، ثم بين سبحانه أن من يطع الله ورسوله ﷺ في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فإنه يدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، وأما من يتولىٰ عن طاعة الله ورسوله ﷺ ويقع في الذنوب والمعاصي ومن ذلك التخلف عن الجهاد في سبيل الله، فإن الله سبحانه يعذبه عذابًا موجعًا ومؤلمًا لا يعلم قدره إلا الله عز وجل.

[١٨] يخبر جل وعلا أنه رضي عن المؤمنين حين بايعوا الرسول ﷺ علىٰ الجهاد والموت في سبيل الله وهم تحت الشجرة في الحديبية، وهذه البيعة سميت بيعة الرضوان؛ ثم بين جل في علاه سبب رضاه عنهم أنه علم ما في قلوبهم من الصدق والإيمان والإخلاص؛ فأنزل سبحانه الطمأنينة عليهم وثبت أقدامهم، وعوضهم فتحًا قريبًا وهو فتح خيبر الذي تم بعد صلح الحديبية؛ جزاءً لهم عمَّا فاتهم بصلح الحديبية.

[١٩] وأخبر سبحانه أنه رزقهم مغانم حصلوا عليها من أموال يهود خيبر، وكان جل في علاه عزيزًا في انتقامه، حكيمًا في تدبير أمور خلقه.

[٢٠] واعلموا أن الله جل وعلا وعدكم أيها المؤمنون مغانم كثيرة تأخذونها بالفتوحات الكثيرة التي تتم علىٰ أيديكم في مستقبل الأيام، ومن فضله عليكم أن عجَّل لكم غنائم خيبر بدون جهد ولا قتال، وذلك بإلقاء الرعب في قلوب اليهود؛ حيث فتحوا حصونهم واستسلموا، ومن فضله أنه كفَّ أيدي الناس عنكم فلم ينلكم سوء من حلفاء يهود خيبر الذين جاءوا لنصرتهم؛ حيث قذف الله الرعب والخوف في قلوبهم فرجعوا علىٰ أدبارهم خائبين، واعلموا أن ما فضل الله به عليكم من التعجيل وكف الأيدي ليكون ذلك علامة تستدلون بها علىٰ صدق نبيكم ﷺ، وأن الله حافظكم وناصركم ومرشدكم طريقًا واضحًا بينًا لا اعوجاج فيه.

[٢١] ثم بين جل وعلا أنه وعدكم غنائمَ أخرىٰ، ولكن لم تقدروا عليها في الحال، وهو فتح مكة؛ حيث فتحها الله لكم فيما بعد، ومن فضله سبحانه أنه حرسها لكم لحين أَخْذِكُمْ إياها، وكان الله علىٰ كل شيء قديرًا، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢٢] واعلموا أيها المؤمنون أنه لو قاتلكم الذين كفروا من أهل مكة لانهزموا أمامكم، ولم يثبتوا في المعركة، ثم يولوكم ظهورهم، وحينها لا يجدون معينًا يعينهم علىٰ قتالكم، ولا ناصرًا ينصرهم عليكم، ويمنعهم منكم.

[٢٣] واعلموا أن هذه هي سنة الله التي مضت في الأمم السابقة أن الله ينصر عباده المؤمنين إذا التزموا ونفذوا أوامره، وأنه يخذل الكافرين، وهي سنة ثابتة باقيةٌ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تغييرًا.

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾
هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ
وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾
لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ
ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

[٢٤] واعلموا أن الله جل في علاه هو الذي منَّ عليكم بأنْ كفَّ أيدي مشركي مكة عنكم فلم يقاتلوكم، وكف أيديكم عنهم فلم تقاتلوهم، من بعد ما تمكنتم منهم، وقدرتم عليهم بلا عهد ولا عقد، وقد كانوا نحو ثمانين رجلًا مسلحين جاءوا من قبل التنعيم يريدون الهجوم علىٰ المسلمين، ثم بين سبحانه أنه بما تعملون أيها الناس بصيرٌ، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم.

[٢٥] ثم بين سبحانه أن كفار مكة هم الذين جحدوا وحدانية الله، وكذّبوا رسولَه ﷺ، وصدوكم عن العمرة، والطواف بالبيت الحرام، ومنعوكم من ذبح الهدي المحبوس معكم في محله، -وهو مكة-، فعلوا كلّ ذلك ظلمًا وعدوانًا، ولولا وجود المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بين أظهر المشركين -لم تميزوهم وتعرفوهم- فكنا نخشىٰ أن تطؤوهم بجيشكم فتقتلوهم؛ فيصيبكم بذلك إثم وغرامة وكفّارةٌ، وعيبٌ أيضًا من المشركين بقولهم عنكم: إنكم تقتلون أهل دينكم؛ لولا ذلك؛ لأذن الله لكم في قتال أهل مكة، وسلّطكم عليهم، وأعانكم علىٰ التغلب عليهم، ولكن لم يأذن الله لكم في قتالهم رحمةً بالمؤمنين المستضعفين في مكة، وليُدخل الله في رحمته من يشاء من عباده بأن يمنَّ عليهم بالإيمان بعد الكفر، ولو تميَّز الذين آمنوا من الذين كفروا، وخرجوا من بين أظهرهم؛ لعذَّبنا الذين كفروا من أهل مكة عذابًا أليمًا موجعًا بأن نسلطكم عليهم، ونأذن لكم في قتالهم، ونعينكم علىٰ التغلب عليهم.

[٢٦] وتذكروا أيها الناس يوم أن جعل الذين كفروا في قلوبهم أنفة الجاهلية الباعثة علىٰ الكبر وعدم قبول الحق؛ فرفضوا أن يكتبوا في ورقة الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم، ورفضوا أن يقروا برسالة محمد ﷺ، وأنفوا من دخول المسلمين في نفس السنة التي جاؤوا فيها، فأنزل الله الطمأنينة والرضا في قلوب المؤمنين، فالتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله ووافقوا علىٰ الصلح، وألزمهم الله كلمة التقوىٰ، وهي (لا إله إلا الله) وحقوقها، فالتزموها، وقاموا بها، وكانوا أحقَّ بهذه الكلمة من غيرهم من المشركين والكفار، وكانوا هم مستأهلينها دون غيرهم، وكان الله بكل شيء عليمًا، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

[٢٧] يخبر جل وعلا أنه سيحقق لرسوله ﷺ الرؤيا التي رآها في منامه؛ حيث رأىٰ ﷺ في المنام وهو في المدينة أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك؛ فاستبشر الصحابة وتيقنوا أن الرؤيا سوف تتحقق هذا العام؛ فلما وقع ما وقع في الحديبية من الصلح والهدنة ورجعوا علىٰ أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء؛ فبين لهم ﷺ أنه لم يخبرهم أنها ستتحقق في هذا العام، وفي العام القادم تحققت الرؤيا ودخل الرسول ﷺ مكة معتمرًا، وقد أدىٰ هو وأصحابه العمرة في أمن وأمان بمشيئة الله وقدرته، وحلق بعضهم رأسه والبعض الآخر قصر، لا يخافون أهل الشرك وغيرهم، ثم بين سبحانه أنه علم أن في صرف الرسول ﷺ وأصحابه عن مكة وعدم دخولها ذلك العام فيه خير ومصلحة لهم، وأنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، قال مجاهد: (إن الله استثنىٰ فيما يعلم لكي يُعَلِّمَ العباد أن يستثنوا بما لا يعلمون)، وفي ذلك العام الذي لم يدخلوا فيه مكة عوضهم جل في علاه فتحًا قريبًا وهو صلح الحديبية وفتح خيبر وأخذ ما فيها من الغنائم.

[٢٨] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا هو الذي أرسل نبيه محمدًا ﷺ بالهدىٰ الذي هو العلم النافع الذي يهدي من الضلالة، ويعصم من الغواية، ودين الحق، وهو دين الإسلام؛ ليعليه الله ويرفعه علىٰ كلِّ الأديان، وكفىٰ بالله شهيدًا علىٰ صحة ما أرسله به، وعلىٰ ما وعد به المؤمنين من ظهور الإسلام وعلوه علىٰ الأديان كلها.

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ
تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي
الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ
عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا
اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا
أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

[٢٩] ثم ختم جل وعلا السورة بذكر رسول الله ﷺ وصحابته الكرام الذين اصطفاهم واختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وبين أنهم غلاظٌ شدادٌ على الكفَّار يسعون غاية جهدهم في عداوتهم والبراءة منهم، وهُم رحماء بينهم متحابون متعاطفون كالجسد الواحد، تراهم مجتهدين في العبادة يكثرون الصلاة والركوع والسجود، يبتغون بعبادتهم فضل الله ورحمته ورضوانه، وقد أثَّرت العبادة في وجوههم؛ حيث ترى على وجوههم البهاء والنور، واعلموا أن ذلك المذكور من وصْفِهم قد وُصِفُوا به في التوراة، وأمَّا وصْفُهُم في الإنجيل: كمثل زرعٍ أخرج فراخَه، فآزره بفروع منه صارت مثله فقوّاه في الاستواء وأعانه وشدّه، فاستغلظت تلك الفراخ حتى استوت بعد أن كانت دقيقةً نحيفة، ثم استقام الزرع على أعواده واكتمل، فأصبح جميلَ المنظر يُعجِبُ الزراع، وهذا كحال الصحابة في تراحمهم وتوادهم واجتماعهم، ونصرة بعضهم بعضًا في إقامة دين الله والدعوة إليه -، لإغاظة الكفار بكثرتهم واجتماعهم، ثم أخبر سبحانه أنه وعد الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم في جنات النعيم، والله لا يخلف الميعاد.

سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنيّة وآياتها ثماني عشرة آية. والحجرات المقصود بها: غرف زوجات النبي ﷺ. وقد سميت بسورة الآداب.

[١] بدأت السورة بإرشاد المؤمنين إلى التأدب في حضرة النبي ﷺ تعظيمًا لمقامه الشريف صلوات ربي وسلامه عليه؛ حيث بدأت بهذا النداء المحبب إلى القلوب، ألا وهو الوصف بالإيمان، فقال جل في علاه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تقضوا أمرًا دون أمر الله ورسوله ﷺ من أمور الدين فتبتدعوا في دين الله أمورًا لم يأذن بها الله، قال ابن عباس رضي الله عنه: (لا تقدموا أيَّ قول أو فعل على قول الله أو قول رسوله ﷺ وفعله)، فإذا ثبت النص وجب على المؤمنين أن لا يقدموا أيَّ رأي على رأيه ﷺ، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بأن يخافوا الله في أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم؛ لأنه سميع لأقوالهم، عليم بنياتهم وأفعالهم.

[٢] ثم وجه جل وعلا نداءً آخر إلى المؤمنين، بيَّن فيه وجوب احترامهم وتعظيمهم للرسول ﷺ؛ حيث نهاهم سبحانه أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي وهم في مجلسه وبحضرته إذا كلَّم بعضهم بعضًا، ونهاهم أن يجهروا بمناداته كما يجهر بعضهم لبعض، وعليكم أن تميزوه في خطابه فتنادوه يا نبي الله يا رسول الله، ثم بين سبحانه بأن نهيه للمؤمنين عن رفع الصوت عنده ﷺ خشية أن تبطل أعمالكم وأنتم لا تشعرون ولا تُحِسُّون بذلك.

[٣] ثم امتدح جل وعلا الذين يخفضون أصواتهم في حضرة النبي ﷺ وعند مخاطبته، وأخبر سبحانه بأن أولئك الذين يخفضون أصواتهم عنده ﷺ هم الذين اختبر الله قلوبهم وأخلصها لتقواه وطاعته؛ ثم بين جل في علاه أن لهؤلاء الغاضين أصواتهم مغفرة لذنوبهم، وثوابًا كبيرًا من الله تعالى، وهو دخول الجنة.

[٤] واعلم يا نبي الله أن الذين ينادونك من وراء غرف أزواجك بصوت مرتفع أكثرهم ليس لهم عقول تحملهم على التأدب معك؛ فلو كانوا يعقلون لما انحطوا إلى هذه المرتبة من سوء الأدب ولانتظروا حتى تخرج.

ذكر المفسرون: أن هاتين الآيتين (٢، ٤) نزلتا في وفد من تميم قدموا وافدين على النبي ﷺ وكان ﷺ قائلًا في بيته وحجرات نسائه، فلم ينتظروا حتى يقوم ﷺ من قيلولته؛ بل رفعوا أصواتهم قائلين: يامحمد اخرج لنا نفاخرك، وقد أحضروا معهم خطيبًا وشاعرًا، والعجب أن الرسول ﷺ كان لطيفًا معهم، ثم إنه ﷺ كلف ثابت بن قيس ليفاخر خطيبهم، وكلف حسان بن ثابت ليفاخر شاعرهم؛ ليثبت لهم أن خطيبهم وشاعرهم ليسا بشيء بالنسبة لمن استقى معلوماته من النبي ﷺ ومن نور الوحي، ولكي يعرف المسلمون أخلاق رسول الله ﷺ وتحمُّلِه للجهلة وعنفهم؛ فلما انتهوا قالوا: خطيب رسول الله ﷺ غلب خطيبنا، وشاعره غلب شاعرنا، والمقصود: هو النهي عن رفع الصوت، والنهي عن أن يقطع في أمر قبل أن ينظر فيه رسول الله ﷺ ويوافق عليه.